

الاستشراف في شعر محمد العيد آل خليفة؛ التّجليات، والمنطلقات، والتفسيرات

Forethought in the Poetry of Mohammed Al-Eid Al-Khalifa:
Manifestations, Foundations, and Interpretations.

د. سمير جريدي

جامعة برج بوعرييج (الجزائر)

Djeridi.samir@univ-bba.dz

تاريخ القبول: 2025/01/12

تاريخ الإرسال: 2024/12/23

ملخص:

يتناول البحث قضية الاستشراف في شعر محمد العيد آل خليفة، إذ يعرف بالشاعر تعريفا موجزا ما يجنب القارئ عناء البحث، ويساعده على فهم ما ورد في البحث، ويعرف كذلك الاستشراف: لغة واصطلاحاً بهدف التأصيل المعرفي للمصطلح والبحث عن تجلياته ثم يتطرق إلى مختلف القضايا التي استشرّف فيها الشاعر، وهي متنوعة، مثل: استشراف المستقبل الزاهر للشعب الجزائري، وتحقيق الاستقلال، وانخراط الاستدمار والظلم، وانتصار الحق، وهزيمة الصهاينة، وخلود الشخصيات الوطنية مثل الشيخ عبد الحميد بن باديس والمستقبل الزاهر لتلامذته وفضلهم على الشعب الجزائري...، وغيرها مما تضمنه البحث، مع تفسير تلك الاستشرافات بالاعتماد على ثقافة الشاعر، ليختتم البحث بخاتمة ضمت أهم النتائج المتوصل إليها.

الكلمات المفتاحية: الشعر، محمد العيد آل خليفة، التّجليات، التّفسيرات.

Abstract:

The study explores the phenomenon of forethought in the poetry of Mohammed Al-Eid Al-Khalifa. It offers a concise definition of the poet to facilitate the reader's comprehension and understanding of the research. Additionally, the concept of forethought is linguistically and conceptually elucidated with the intent of establishing the cognitive groundwork of the term and dissecting its various manifestations. The analysis delves into the wide array of issues foreseen by the poet, encompassing topics such as the anticipation of a prosperous future

for the Algerian populace, the attainment of independence, the overcoming of stagnation and oppression, the prevalence of justice, the triumph over the Zionists, and the eternalization of national luminaries like Sheikh Abdelhamid Ben Badis. Furthermore, the bright prospects of his disciples and their superiority over the Algerian people are among the subjects expounded upon in the investigation. These prophetic insights are interpreted through the lens of the poet's cultural milieu. The research culminates in a comprehensive conclusion encapsulating the key findings.

keywords: poetry, Mohammed Al-Eid Al-Khalifa, manifestations, word interpretations.

مقدمة:

ليس الأدب - الشعر والنثر - شيئاً منفصلاً أو مستقلاً عن مختلف نواحي الحياة البشرية العامة أو الخاصة، وإنما تعد موضوعاتها، ومجالاتها المختلفة هي المادة التي يستقي منها ذلك الأدب أفكاره، لكي يعبر عنها ويصوغها في قالب أدبي مميز، إضافة إلى أنه وعاء لأفكار الأديب الذاتية، والفلسفية، يعبر عنها فيه.

فالأدب يتحدث عن الأيديولوجيا، والتاريخ، والإصلاح، والتربية، والسياسة، والاقتصاد وغير ذلك، وييدي رأيه في تلك القضايا، ويستشرف في عديد القضايا من مختلف النواحي. والأدباء الجزائريون لا يخرجون عن هذا الأمر، فقد كانت هناك دراسات عديدة تناولت الاستشراف في الرواية الجزائرية خصوصاً، ولا ندري هل لوضوحه في ذلك النوع الأدبي أم لتخصص الدراسين فيه.

غير أن الملاحظ أن البحث في الاستشراف وتحليلاته ومنطلقاته أمر نادر، إن لم نقل معدوماً في الشعر الجزائري، ولا سيما لدى شعراء جمعية علماء المسلمين الجزائري، لأجل ذلك بدا لنا أن نبث في موضوع الاستشراف لدى الشاعر الجزائري المصلح محمد العيد آل خليفة، وذلك تحت العنوان الآتي: "الاستشراف في شعر محمد العيد الخليفة؛ التحليلات المنطلقات، التفسيرات".

وأما أسباب اختيارنا هذا الموضوع، فهي: ذاتية، وموضوعية. فأما الذاتية، فهي وجود رغبة لدينا، وولع بدراسة شعر شعراء جمعية علماء المسلمين الجزائريين في مختلف الروايات

ولدينا في هذا الشأن إسهامات عديدة (مذكرة الماجستير، أطروحة الدكتوراه، عديد المقالات والمقتنيات).

وأما الأسباب الموضوعية - وهي الأهم-، فهي كما قلت - عمومًا - قلة الدراسات التي تناولت الاستشراف في الشعر الجزائري الحديث، وربما يعود الأمر إلى عدم وضوحه وظهوره مثلما هو الشأن في الرواية، والشاعر محمد العيد لا يخرج عن هذا الوصف.

والحق أن الدراسات التي تناولت محمد العيد آل خليفة، وشعره كثيره جدًا ويكفي أنها انطلقت مع الدراسة الرائدة للدكتور أبي القاسم سعد الله الموسومة بـ: "شاعر الجزائر محمد العيد آل خليفة"، وتوالت الدراسات بعدها من خلال مذكرات الماجستير، أو أطروحات الدكتوراه، أو المقالات المنشورة في المجلات العلمية، والعائد إلى البحث في الشبكة العنكبوتية الدولية (الأنترنت) سيجد بعض تلك الأعمال متاحة للتحميل.

لكن تناول قضية الاستشراف في شعره غير موجودة أو متناولة - في حدود اطلاعنا- رغم البحث، وهذا الأمر راجع إلى عدم وضوحها وتحليلها بشكل ظاهر كما هو الشأن في الرواية، لذلك ارتأينا أن نبث فيها، محددتين تحليلات الاستشراف ومنطلقاته وتفسيراته لها.

فمن هو محمد العيد آل خليفه؟ وما هي سيرته ومختلف نشاطاته؟ وما مفهوم الاستشراف لغة واصطلاحًا؟ وما هي تحليلاته ومنطلقاته وتفسيراته في شعر محمد العيد آل خليفة؟

ولأجل الإجابة على أسئلة الإشكالية، قسمنا المداخلة على النقاط الآتية:

أولاً- المدخل: وفيه تناولنا حياة محمد العيد آل خليفة، وقد حاولنا أن يكون التعريف موجزًا، ولكن ملّمًا في الوقت نفسه بأهم محطات حياة الشاعر، لأن هذا الأمر سيفيدنا كثيرًا في دراسة قضية الاستشراف في شعره من جميع النواحي.

ثانيًا- الاستشراف: وفيه تناولنا

أ- مفهوم الاستشراف لغة واصطلاحًا.

ب- تحليلات الاستشراف، ومنطلقاته، وتفسيراته. وقد اتضح أن الاستشراف كان في عديد المواضيع، منها:

- 1- الاستشراف بحدوث الاستقلال.
- 2- الاستشراف بزوال مُلك الظالمين (الاستدمار الفرنسي هو المقصود).
- 3- الاستشراف بزوال الاحتلال الصهيوني واستقلال فلسطين.
- 4- الاستشراف بالدور الرائد للطلبة في حاضر الشعب الجزائري ومستقبله.
- 5- الاستشراف بنجاح الشباب.
- 6- الاستشراف بحاضر ومستقبل زاهر للشعب.

ولعل هذا البحث أن يوضح الاستشراف ويسهم في تحليلته في شعر محمد العيد آل خليفة، وفي إثراء المكتبة الوطنية الجزائرية ولو بنزر يسير.

وقد اعتمدنا في معالجة إشكالية البحث المنهج الموضوعاتي الوصفي، القائم على تحديد موضوعات الاستشراف ووصفها والتمثيل لها من ديوان الشاعر، كما استخدمنا المنهج التاريخي في تفسير تلك السمات والخصائص المتعلقة بالاستشراف.

ثالثاً- الخاتمة: التي أوردنا فيها مختلف النتائج المتوصل إليها.

رابعاً- قائمة المراجع.

أولاً- سيرة محمد العيد آل خليفة:

إنّ محمد العيد آل خليفة شخصية متعددة الجوانب والاتجاهات - شأنه شأن أغلب الشعراء والأدباء المعاصرين له-، فهو وإن عرف عنه وشاع أنه شاعر- إذ هو حسان الحركة الإصلاحية، وشاعر الشباب- فهو كذلك صحفي، ومعلم، ومربٍ، ومصلح، وإمام خطيب، ومناضل، وكل هذا سيتضح لاحقاً.

1- مولده:

ولد الشاعر في مدينة عين البيضاء ولاية أم البواقي حالياً بتاريخ 1322 هـ الموافق ل: 1904م⁽¹⁾، أصل عشيرته من بلدة كوينين قرب مدينة وادي سوف،⁽²⁾ تنحدر هذه العشيرة من قبيلة "المحاميد" العربية التي سكنت ليبيا، ومنها انتقلت إلى الجزائر في العهد العثماني وقد انحدرت أسرة الشاعر من بعض من بقي من تلك القبيلة بالجزائر، ثم هاجرت تلك الأسرة أواخر القرن التاسع عشر ميلادي إلى مدينة عين البيضاء، التي ولد فيها الشاعر⁽³⁾.

2- تعلمه:

تعلم محمد العيد آل خليفة في أماكن مختلفة؛ إذ يقول عن نفسه: "فيها نشأت [يقصد مدينة عين البيضاء] وبها قرأت القرآن وتلقيت دروسًا ابتدائية بمدرستها"⁽⁴⁾، على يد الشيخين محمد كامل بن زعرور، وأحمد بن ناجي، ثم انتقل مع أسرته إلى بسكرة سنة 1918م، فأتى حفظ القرآن الكريم، وهو ابن أربع عشرة سنة⁽⁵⁾، وواصل دراسته على المشايخ: علي بن إبراهيم العقبي الشريف، والمختار بن عمر البعلاوي، والجنيد أحمد مكي⁽⁶⁾، وقد أخذ عنهم كثيرًا من أصول التوحيد، والفقه، والنحو، والمنطق، وغيرها من العلوم الدينية واللغوية⁽⁷⁾.

وفي سنة 1921م غادر الشاعر بسكرة إلى تونس، حيث تتلمذ سنتين في جامعة الزيتونة، ثم رجع سنة 1923م، لبدأ نشاطا مكثفا ستحدث عنه بعد قليل.

3- نشاطاته:

لما عاد الشاعر من تونس إلى الجزائر سنة 1923م كانت له نشاطات متنوعة، يمكن أن نتحدث عنها في القضايا الآتية:

أ- الصحافة:

شارك الشاعر في النهضة العلمية والصحافية بقلمه في عديد الصحف الجزائرية آنذاك مثل: الإصلاح صدى الصحراء، الشهاب، وغيرها⁽⁸⁾.

ب- التعليم:

بدأ الشاعر مساره التعليمي الحافل سنة 1927م بمدرسة الشبيبة الإسلامية الحرة بالجزائر العاصمة، وأصبح إلى جانب احتفاظه بالتدريس مديراً لها، وفي سنة 1941م غادر العاصمة، واتجه إلى مدينة باتنة حيث واصل مهنة التعليم بمدرستها لمدة 6 سنوات، وفي سنة 1947م توجه إلى مدينة عين مليلة، وأصبح مشرفاً على إدارة مدرستها الحرة (العرفان)، فبقى يمارس التدريس بها إلى غاية اندلاع الثورة الجزائرية في نوفمبر 1954م⁽⁹⁾.

ج- الإسهام في تأسيس جمعية العلماء المسلمين الجزائريين:

لما ظهرت جمعية العلماء المسلمين الجزائريين إلى الوجود فيه 5 ماي 1931م بنادي الترقى بالجزائر العاصمة، "كان شاعر واحدًا من أوائل الذين أسهموا في تأسيس هذه الجمعية وباركوا ظهورها، وأصبح منذ انطلاقتها الأولى، عضوا عاملا في مؤسساتها، ثم لم يلبث أن أصبح فيما بعد نائب رئيس لإحدى لجانها الفرعية الأربع، وهي لجنة الأدب"⁽¹⁰⁾، وقد ناضل في صفوفها، مصلحًا و مربيًا وشاعرًا"⁽¹¹⁾.

وأسهّم الشاعر في تخليد نشاطاتها والدفاع عنها وعن مبادئها بشعره، الذي نشره خصوصًا في جريدة البصائر الأولى والثانية ومجلة الشهاب.

ومّا يذكر بخصوص نظم الشعر، أنه بدأه في سنّ مبكر من حياته "فقد بدأ قرض الشعر وهو ابن سبعة عشرة عامًا، عندما كان ينظم في الإخوانيات"⁽¹²⁾.

د- توعية الشعب ودعوته للانضمام إلى الثورة:

لما اندلعت الثورة التحريرية كان الشاعر مشرفًا ومعلمًا بمدسة العرفان بعين مليلة وكان يقوم -داخل حجراتها- بـ"توعية الشعب بحقيقة الثورة وأهدافها ونفخ الروح الجهادي في طلابه وحثه إياهم على تلبية الواجب الوطني فاستجاب له بعضهم، والتحق بصفوف الثورة"⁽¹³⁾، مما أدى بالسلطات الاستدمارية إلى إغلاق المدرسة وتحويلها إلى ثكنة عسكرية.

ولم يوقف الشاعر نشاطه التوعوي "فقد رضى بالمسجد المجاور لها وظل يواصل نشاطه يؤم المواطنين ويخطب فيهم حاثًا إياهم على مواصلة الجهاد والانضواء تحت لواء الثورة"⁽¹⁴⁾ وتم اعتقاله على إثر ذلك سنة 1955 ثم نقل إلى بسكرة وفرضت عليه الإقامة الجبرية إلى غاية الاستقلال.

4- وفاته وآثاره:

توفي الشاعر سنة 1979م بمدينة باتنة، ودفن في مقبرة "الغزليات" بمدينة بسكرة⁽¹⁵⁾ -رحمه الله رحمة واسعة-، وقد ترك الشاعر وراءه تراثًا زاخرًا ومتنوعًا يمكن إجمالها فيما يأتي:

- ديوان شعري، وقد طبع عديد المرات.
- "العيديات المجهولة"، وهو مؤلف يضم القصائد التي لم يضمها الديوان، قام بجمعها وتحقيقها الدكتور محمد بن سميّة.

- المسرحية الشعرية "بلال بن رباح".

- مجموعة من الخطب والمقالات المبثوثة في بعض الصحف، وبعض المسرحيات النثرية⁽¹⁶⁾.

ثانيا- مفهوم الاستشراف:

يقتضي الحديث عن الاستشراف في شعر محمد العيد آل خليفة ضبط المصطلح وتأصيله المعرفي، وهذا الأمر منهجي ومنطقي، إذ إن الباحث سيحاول تحديده، والبحث عنه وعن تجلياته، وفق تلك التأصيلات المعرفية سواء أكانت اللغوية أم الاصطلاحية في مختلف التخصصات المعرفية.

أ- لغة:

ورد تعريف الاستشراف في عديد المعاجم اللغوية العربية؛ فالاستشراف من الفعل "استشرف استشراف(شرف)1- الشيء: انتصب وعلا.2- للشيء: تعرض له.3- الشيء: رفع بصره ينظر إليه.4- الشاة: تفقدها ليأخذها شريفه سالمة من العيب"⁽¹⁷⁾.

والشيء نفسه تقريبا نجده في معجم آخر، فالاستشراف من الفعل "استشرف: انتصب وعلا.1- للشيء: تعرض.2- الشيء: رفع بصره ينظر إليه"⁽¹⁸⁾.

فهناك تشابه كبير بين المعنى اللغوي للاستشراف في المعجمين، وهو هنا لا يخرج عن معنى الانتصاب والعلو، والتعرض، ورفع البصر، وتفقد الشاة للتأكد من خلوها من العيب. ومثل هذه المعاني مختلفة تماما عن المعنى الاصطلاحي الذي سنتخذ منطلقا لبحثنا ونحدد معناه لاحقا.

ب- اصطلاحًا:

هناك تعريفات عديدة للاستشراف⁽¹⁹⁾، غير أنه لا يمكننا ذكرها كلها، لعدم احتمال المقال ذلك الكم، وقد اكتفينا بتعريفات واضحة وعملية بعيدة عن التجريد، إذ يمكن تطبيقها على النصوص الشعرية التي نحن بصدد دراستها.

والاستشراف "اجتهاد علمي منظم، يهدف إلى صياغة جملة من التنبؤات المشروطة والتي تشمل المعالم الرئيسية لأوضاع مجتمع ما، أو مجموعة من المجتمعات عبر فترة [زمنية]

مقبلة تمتد قليلا لأبعد من 20 عامًا، وتنطلق من بعض الافتراضات الخاصة حول الماضي والحاضر، ولاستكشاف أثر دخول عناصر مستقبلية على المجتمع⁽²⁰⁾.

فالاستشراف إذا هو اجتهاد قائم على منطلقات علمية ومعطيات ثقافية، يهدف من خلالها المستشرِف إلى التنبؤ والتوقع في المستقبل الذي قد يمتد إلى ما بعد 20 سنة قليلا، بحدوث أو توقع أحداث معينة.

ويمكن كذلك أن نجد مفهومه من خلال مهمته، إذ "يمكن أن تتضمن مهمة الاستشراف عملية تحديد التغيرات المحتملة التي تطرأ على ما مسار أحداث معينة أو شكل المجتمع أو وتيرة الإنتاج الاقتصادية، أو نوعية وحجم السكان، أو حتى استشراف التغيرات المناخية والجيولوجية، وسائر الظواهر الطبيعية الأخرى المادية والكيفية"⁽²¹⁾.

والاستشراف باختصار هو "الاستباق"⁽²²⁾، أي التوقع المسبق لحدوث شيء ما بناء على معطيات منطقية أو علمية أو تاريخية، وهو "على مستوى آخر يكشف عن رؤية الكاتب وقدرته على استقراء الواقع الكائن"⁽²³⁾.

والذي نخلص إليه هو أن الاستشراف هو التوقع أو التنبؤ بوقوع حادث أو أحداث على وجه الترجيح والاحتمال في المستقبل، وكل ذلك بناء على منطلقات ومعطيات يستند إليها المستشرِف.

والاستشراف ليس الكهانة التي يدعي صاحبها معرفة الغيب والقدرة على كشفه فالغيب لا يعلمه إلا الله، قال تعالى: «قل لا يعلم من في السموات والأرض الغيب إلا الله وما يشعرون أيا يبعثون»⁽²⁴⁾. وليس الاستشراف كذلك التنبؤ أو التوقع بمعنى الشعوذة التي "هي خفة في اليد وأعمال السحر [أو] الاحتيال"⁽²⁵⁾.

ونعتقد أن ما سقناه عن مفهوم الاستشراف، والفرق بينه وبين الشعوذة والكهانة كافٍ للانطلاق في تحديد تجلياته في شعر محمد العيد آل خليفة.

ثالثا- تجليات الاستشراف في شعر محمد العيد آل خليفة:

لقد تصفحنا الديوان وقرأنا قصائده قراءة واعية متأنية، فتوصلنا إلى مجموعة من الاستشرافات، شأنه شأن زميله في جمعية العلماء المسلمين الجزائريين الشيخ محمد البشير الإبراهيمي (1889-1965)⁽²⁶⁾.

والذي ينبغي التنبيه عليه منذ البداية هو أنّ الاستشراف في ديوان محمد العيد آل خليفة يشكل جزء يسيرا من القضايا التي تناولها، وأن عدد أبياته قليل جدا مقارنة بعددها في الديوان، والاستشراف يكون في الأغلب الأعم عبارة عن بيت أو بيتين أو ثلاثة أبيات أو أكثر بقليل، وذلك عند الحديث عن قضية معينة، ولم نجد تجرّبه شعريه قصيرة، أو طويلة قد خصصها الاستشراف حول أمر معين.

وأما القضايا التي استشرّف بشأنها محمد العيد فهي:

1- الاستشراف بمستقبل زاهر للشعب الجزائري:

لقد عاش محمد العيد آل خليفة حياته، وسخر شعره لخدمة الشعب الجزائري وتوعيته وتحقيق آماله وتطلعاته، إذ يصرح قائلا:

جعلتُ الشعر في الدّنيا نجيّ	فكان لحاطري كالترجمان
ولم أكف عن استنهاض شعبي	به لأراه في أعلى مكان
لذاك رجوت بأن يبقى كذخر	لشعبي رافع للذكر باني ⁽²⁷⁾

ويقول في موضع آخر:

أيها الشعب أنت موضع شعري وشعوري لا زينب والزّباب⁽²⁸⁾

لذلك لا عجب أن نجد الشاعر يتحدث كثيرا عن الشعب، ويستشرّف مستقبله الذي توقع وتنبأ بأن يكون مستقبلاً زاهراً، وهذا مما نلجده في عديد الأبيات.

يقول الشاعر في قصيدة "صوت في الغيب" التي نشرها سنة 1936م في جريدة البصائر:

وعصرنا الآتي حـريّ	ي أن يفوق الحاضر
أرى على الأفق من الـ	شرق سحابة ماطر

يوشك أن ينبت في الش شرق نباتاً ناضراً
أرى أمامي نهضة كبرى وعصراً زاهراً⁽²⁹⁾

وفي قصيدة "بلادي التي نشرها في جريدة البصائر، يصرح قائلاً:

فيا شهر هل في الأرض يُكشف كزُّنا ويُبعث فينا مجدنا المتقادم؟
وهل ييسط الإسلام في الأرض ظله وتنشر الفصحى وتعلو العمائم؟
ويا شهر هل تعطر الجزائر حقها ويفرج عنها ضيفها المتلاحم؟"⁽³⁰⁾

وبعد هذه الاستفهامات والتساؤلات غير الحقيقية - فالغرض إثبات وقوع أجوبة تلك الاسئلة - يصرح بعدها، ويتنبأ بالازدهار للبلاد قائلاً:

بلى سوف يُحيي الله كل ربوعها فتزكو بواديها وتزهو العواصم

وفي قصيدة "استوح شعرك"، يستشرف الشاعر بقرب طلوع الفجر الذي هو الفرج وقد يكون الاستقلال، وبأن الله سيرد نعيم الجزائر، الذي يشبه جنة الفردوس، كما رد قرن الشمس ليوشع⁽³¹⁾.

إذ يقول عن الجزائر:

الفجر يؤذن بالطلوع فرحي بالنور غاب ظلامك المتقشع
فردوسك المفقود سوف يرده من ردّ قرن الشمس ليوشع⁽³²⁾

والواقع أنّ استخدام الفجر رمزاً للفرج (وهو أحد الأزمنة) أمر لم يقتصر على محمد العيد آل خليفة، فالشيخ عبد الحميد بن باديس استخدم "الصباح" للتوقع بقرب الفرج أو الاستقلال، يقول:

يا نشء أنت رجاؤنا وبك الصّباح قد اقترّب⁽³³⁾

كما يستشرف الشاعر انقشاع المظالم، وازدهار المعارف وانحسار الجهل، وتوفير الشعب في تحقيق غاياته في تحصيل العلم والقضاء على الجهل، وهذا ما نجده في بعض

أبيات قصيدة "في يوم باتنة العظيم"، التي نشرها في ديسمبر 1954م بالبصائر، وهذه بعض أبياتها التي يتحدث فيها قاصداً الشعب الجزائري:

ولا تخشَ رزايا فيك طلعت	مدى فستنجلي عنك الرزايا
وتنقشع المظالم بائدات	على صوت المطالب والشكايا
وتزدهر المعارف كاشفات	مجاهل من مآثرنا غبايا
وما للجهل بُقيا في بلاد	لُعْنَمِ الْعِلْمِ عُبَّاتِ السَّرايا
لقد بدت الظواهر بينات	بأنّ الشعب ووفق فيك غاياً ⁽³⁴⁾

وفي أبيات من قصيدة "دعاك الأمل" التي نظمها بمناسبة حفل تدشين دار الحديث بتلمسان، يرى الشاعر أنّ الفجر الذي يرمز به الى الانفراج أو الاستقلال، قد بدأ واستهل مع افتتاح دار الحديث التي تنشر العلم والتحارب الجهل، وكل ذلك مما يؤدي إلى الوعي والثورة وتحقيق الاستقلال، وفيها يقول:

أرى حاضراً	على الغيب ⁽³⁵⁾ دلّ
أرى فجرزاً	ببدأ واسـتـهـل ⁽³⁶⁾

أما في بعض أبيات قصيدة "في ظلال الخير"، التي ألفاها في حفل الجمعية الخيرية بالعاصمة، ونشرت بمجلة الشهاب سنة 1935م، فقد تنبأ الشاعر وتوقع وآمن بأنّ عصور الخير مقبلة، لا ريب في ذلك، وأنّ الشعب - يقيناً - قد تطلع لفعل الخير حاضراً ومستقبلاً وهذا من خلال ما رآه وشاهدّه من أعمال خيرية، إذ يقول:

الحمد لله هذا الحفل ظاهرة	دلت على أنّ شأن الأمة ارتفعاً
أمنت أنّ عصور الخير مقبلة	لا ريب في صدق برق قبلها لمعا
اليوم أيقنت أنّ الشعب أجمعه	قد اشرباً لفعل الخير واطلّعا ⁽³⁷⁾

ونختم حديثنا عن الاستشراف بمستقبل الشعب الزاهر بهذه الأبيات من قصيدة "يوم الشعب" التي نظمها وألفاها في الذكرى الثانية للمؤتمر الإسلامي في الجزائر ونشرت في مجلة الشهاب جويلية 1937م، وفيها يقول:

سـيـجـيـء يـوم للـحـزـا	ئـر فـيـه تـطـرح الـكـدـر !!
وتـظـل سـيـرة أهـلـها الأ	سـيـاد سـيـدة السـيـر
فـكـأـنـي بـالحـق فـي	هـا بـعـد حـيـن قـد ظـهـر !
وكـأـنـي بـالـخـصـب عـم	م وبـالـغـنـيـم بـهـا زـخـر
وكـأـن بـادـيـه اـزـدـهـي	وكـأـن حـاضـرـها اـزـدـهـر
فـلـكـل شـيـء مـنـتـهـي	ولـكـل أـمـر مُـسـتـقـر !! (38)

2- الاستشراف بوقوع الثورة ضد الظلم (الاستدمار):

فتح الشاعر عيني على ظلم المستدمر للشعب واضطهاده له، لذلك توقع وتنبأ بوقوع الثورة ضده، وإن لم يصرح بذلك مباشرة، وإنما كان يُلمح إلى ذلك، من خلال التصريح بسماع صوت يدعو إلى ذلك أو من خلال الحديث عن الثورة المتوقعة على لسان البَحر⁽³⁹⁾، دون الحديث عنها مباشرة، وربما يعود ذلك إلى القهر والبطش والخوف من ردّة الاستدمار، خصوصًا وأن الوقت غير مناسب تمامًا للدعوة إلى الثورة أو التصريح العلني بوقوعها، فالشعب كان ما مخدّرًا بأفكار بعض الطرق الصوفية، وأفكار الاستدمار وغيره.

ومن الأبيات التي يستشرف فيها وقوع الثورة نذكر بعضًا منها في قصيدة "صوت من الغيب" التي نشرها في جريدة البصائر سنة 1936م، ومما جاء فيها قوله:

سمعت صوتًا من غيا	بات الغيوب صادرًا
قد آن للمسلم أن	يسـتمـرئ المصـائـر
إن له في صفحة الأر	ض لرسمها فـاخـرا
يأبى له إلاه أن	يقي ذليلاً صاغراً ⁽⁴⁰⁾

فاستمرء المصائر إنما هو توقع بالقيام بالثورة ضد الاستدمار الظالم لتقرير المصير. ويستخدم الشاعر البحر، فيتحدث على لسانه في توقعه للثورة، يقول في قصيدة "يا بحر":

أخشى غدا فيك تغذو	أزادك البيض حمرًا
أخشى وغي فيك تهمي	فتقلب الماء جمرًا ⁽⁴¹⁾

وبالعودة إلى سياق نظم القصيدة نرجح أن يكون البحر هو الشعب، الذي سيقلب الماء جمراً، أي أنه سيثور ويشعل نار الثورة تحت أقدام المستدمر.

ويواصل مخاطب البحر قائلاً:

أرى بِكَ الموجَ جُنْداً أرى الشُّواطئَ تَغْـرَا
ما أَنشَبَ الموجَ حَرْباً إِلَّا تَغْلَبَ نَصْـرَا⁽⁴²⁾

.....

يا بحر إن ضاقتْ أُمُرُ قَدْ يَحْدِثُ اللهُ أَمْرَا
لا بد من بعد عُـسْرِ أن يجعل الله يُسْـرَا⁽⁴³⁾

ويبدو لنا أنّ الشاعر متأثر أو مشابه على الأقل لأي القاسم الشابي، حينما رمز للثورة على الاستعمار بهول الظلام، وقصف الرعود، وعصف الرياح، في قصيدته الموسومة بـ: "إلى طغاة العالم"⁽⁴⁴⁾، ومما جاء فيها قوله، مخاطبا الاستعمار الفرنسي:

رويدك ! لا يَخْدَعُكَ الرِّيع وصحو الفضاء، وضوء الصّباح
ففي الأفق الرّحب هول الظّلام وقصف الرّعود، وعصف الرّياح
حذار ! فَتَحَتِ الرّماد اللّهبُ وَمَنْ يَبْذِرُ الشوكَ يَجْنِ الجِراحَ

3 - الاستشراق بوقوع ثواب الله:

الشاعر محمد العيد آل خليفة حافظ للقرآن الكريم، ودارس للعلوم الدينية واللغوية وللحديث النبوي الشريف، وغيرها مما يساعد عليه فهم القرآن الكريم ومعانيه، لذلك لا ضير في أننا نجده يستمد معانيه وأساليبه في شعره، ففي قصيدة "منظر تاعس ناعس" التي يصف فيها مناظر البؤس الكثيرة في الجزائر يستشرف الجزاء الحسن، وحسن المثاب للمنفقين، والمحسنين الذين يعينون الفقراء، إذ يقول:

وَمَنْ يَكُنْ لِلَّهِ إِنْفَاقَهُ نِيلَ بِهِ الزلفى وحسن المثاب⁽⁴⁵⁾

فالواضح أن هذا الاستشراف بالزلفى وحسن المثاب، إنما اقتبس فكرته وتعبيره من قوله تعالى: ((وَإِنَّ لَهُ عِنْدَنَا لَزُلْفَى وَحَسَنَ مَثَابٍ))⁽⁴⁶⁾.

وفي بعض أبيات قصيدة "رفاق الخير" التي ألقاها في حفل إدارة الترقية بالجزائر العاصمة بعد انتخاب المجلس الجديد لجمعية علماء المسلمين، ونشرها في البصائر سنة 1936م، يستشرف بالنجاح والفوز والظفر للمسلمين، إذ يقول:

أيها المسلمون لا	تخفروا عهد من خفر
سالموا كل من طغى	في الحضور أو فجر
حسبنا في جهادنا	أن من جندنا القدر
كنتم خير أمة	أخرج الله للبشر
لا تخافوا لا تحزنوا	إن عقباكم الظفر ⁽⁴⁷⁾

كما تحدث الشاعر عن الشعب الجزائري متوقعا متنبئا بالفوز والتّجّاح وكسب رضا الله عز وجل، وهذا في بعض أبيات قصيدة "استوح شعرك" التي نشرها في البصائر سنة 1937م، ومما جاء فيها:

ثق بالإله تعش عزيز القدر لا	بمرغم أنفنا ولا بمجدّع
فبإذنه في البدء قد حُزّت الرضى	وبإذنه ستحوزه في المقطع ⁽⁴⁸⁾

4- الاستشراف بعقاب الله للاستدمار الفرنسي:

لقد استشرف محمد العيد صبّ العذاب من قبل الله على الاستدمار الفرنسي الظالم للجزائر، مذكرا إياهم بنهاية فرعون الذي كان أعنى وأقوى منهم، إذ يقول:

وطني الذي هم به ودليله	كدليل يوسف ثوبه المقدود
لا يأمّنوا من العذاب عليهمو	فرعون أعنى منهم وثمود ⁽⁴⁹⁾

5- الاستشراف بحفظ الله ونصره:

يتنبأ محمد العيد ويتوقع للسائرين إلى فعل الخير والعلا بالحفظ والتوفيق لهم من قبل الله تعالى، فهو خير الحافظين، وخير الناصرين سبحانه وتعالى، إذ يصرح مخاطبا إياهم:

سيروا على ضوء اليقين — تأمنوا المعاشرا
فالله خير حافظاً — والله خير ناصر⁽⁵⁰⁾

وهو في استشرافه هذا إنما يقتبس معناه وتعبيره من القرآن الكريم في قوله تعالى: ((قل هل أمتكم عليه إلا كما أمتكم على أخيه من قبل فالله خير حافظاً وهو أرحم الراحمين))⁽⁵¹⁾.

6- الاستشراف بزوال الظلم وانهايار الكفر، وخلود الشعب، وشرع الله:

لقد استشرّف محمد العيد آل خليفة بزوال الظلم وانهايار الكفر، وفي سياق شعره هنا فإن المقصود بالظلم والكفر هو الاستعمار الفرنسي البغيض، وقد تحدث عن هذا في أبيات عديدة، وفي مناسبات كثيرة، اتخذ منها منطلقاً للتبشير بنهاية الظلم وانهايار الكفر، وخلود شرع الله، وانتصار الشعب، ومّا جاء في هذا السياق قوله من قصيدة "ويخلد الإسلام" التي نشرها سنة 1939م:

كل ما يشرع ابن آدم يفنى — وما يشرع الإله الدوام
سوف تهوى مبادئ الكفر صرعى — فانيات ويخلد الإسلام⁽⁵²⁾

وبمناسبة تقسيم فلسطين استشرّف الشاعر بفناء بريطانيا التي سلمت فلسطين إلى اليهود، وظلمت أهلها، وألحقت بهم الويلات، حيث يصرح قائلاً:

قد دلّ طغيان انكلترا — على فناء لها وشيك⁽⁵³⁾

وأثناء مواجهة مصر مع بريطانيا سنة 1952م، على إثر إلغاء معاهدة 1936م استشرّف الشاعر هزيمة حكومة الاحتلال البريطاني، لأنها ظالمة معتدية، متوقّعا نهاية لها وعقاباً، كما أصاب العقاب قبيلة "عاد" التي ذكرها القرآن الكريم، إذ يقول:

وكل حكومة عسقت وحادت — عن طريق الحق المقدّس وهو بادٍ
فبشرها بنسفٍ بعد عصفٍ — كما فعلت بعاد ريح عاد⁽⁵⁴⁾

والذي نخلص إليه ونلاحظه في الاستشرافات العديدة التي أدرجناها تحت العناصر السابقة وهذا العنصر هو: أن الشاعر بمناسبة حدث معين وقع في بيئته (سواء الجزائر أو العالم العربي أو الاسلامي) يتوقع ويستشرّف حدوث أحداث معينة بعد ذلك، وتلك

الأحداث إنما استشرف وقوعها من ثقافته الإسلامية التي أسقطها على واقعه الحالي فالاستشرف بانتصار الحق، وفلاح المحسن، وانحياز الطغيان هي أفكار أخذها من ثقافته الإسلامية التي تشبع بها، وأن مثل ذلك الاستشرف إنما هو رفع للمعنويات للشعب الجزائري وبعث لروح التفاؤل، مما يعد نضالاً ووسيلة في خدمة الشعب لتحقيق هدفه وهو الاستقلال.

7- الاستشرف بزوال الاحتلال الصهيوني لفلسطين واستقلالها:

ففي بعض أبيات قصيدة "هيجت وجدي" التي نظمها سنة 1948م يستشرف بإحزام الصهاينة، وانتصار الفلسطينيين واسترجاع القدس، إذ يقول:

قل لابن صهيون اغتررت فلا تجر إن ابن يعرب ناهض للشار

إلى أن يصل إلى البيتين الذين استشرف فيهما انحزام الصهاينة قائلاً:

لا تحسبن أن صبحك طالع فالبدر ويحك خادع للساري
سترى أمانيك التي شيدتها منهارة مع ركنك المنهار⁽⁵⁵⁾

والواقع أن استشرف الهزيمة للعدو لم يبينه الشاعر على المعطيات الميدانية التي لا تشير إلى ذلك في تلك الأثناء، وإنما بناه على ثقافته الإسلامية التي تبشر بنهاية اليهود وهزيمتهم، سواء في ذلك الوقت أو لاحقاً.

8- الاستشرف بالدور الزاهر والحافل لطلابه في المستقبل:

لقد مارس الشاعر التعليم في محطات عديدة من حياته، وكان له تلامذة كثيرون وهو- فيما نحسب- كغيره من إخوانه المعلمين لم يكونوا "يتخذون المادة جزاء لرسالتهم وجهدهم، وإنما كانوا يعملون، لأن التعليم العربي رسالة إصلاحية ثقافية، وهي واجب عليهم أداؤها، كما يؤدون الصلاة فكان التعليم بالقياس إلى أولئك المعلمين المضطهدين رسالة نضال، لا مهنة لكسب الرزق، وشتان ما بين الأمرين"⁽⁵⁶⁾.

وقد عرف عنه حبه للتعليم وإخلاصه فيه، وقد لاحظ اهتمام الطلاب بالعلم وإقبالهم عليه، لذلك لاشك أن يستشرف لهم بمستقبل زاهر، وفضل ومكانة لهم في المستقبل وعلى الشعب الجزائري، إذ يقول في قصيدة "التفاؤل":

أرى جلا اصحابي ازدروا بوظيفي
وقد زعموا عُمري مع النشء ضائعاً
سيروون عني العلم والشعر بُرْهة
فمنهم خطيب حاضر لفكره مُصقع
ومنهم زعيم للجزائر قائد
فهذا رجائي قتلته متفائلاً
وقالوا هموم كلّها ووجائع
وتالله ما عمري مع النشء ضائع
وتطلع للإسلام منهم طلائع
ومنهم أديب طائر الصّيت شائع
له في مجالات الجهاد وقائع
وللشّرع رأي في التّفاؤل ذائع⁽⁵⁷⁾

9- استشراف استقلال الجزائر:

لقد كان الشاعر في الثلاثينيات يستشرف بمستقبل زاهر للشعب الجزائري، لكنه وإن كان يقصد الاستقلال لم يصرح به، لأنه يرى أن ظروف الشعب في تلك الفترة لا تسمح بتحقيق الاستقلال قريباً وعاجلاً، لكنه لاحقاً استشرف بتحقيقه صراحة وعاجلاً، وكان ذلك أثناء فرض الإقامة الإجماعية عليه في بيته نهاية 1955م وإلى غاية الاستقلال، إذ يقول في قصيدته "مناجاة بين أسير وأبي بشير":

أتى استقلاله⁽⁵⁸⁾ حتماً فأبشر
ودع عنك التشاؤم فهو وهم
فليس لأمة بالحق ثارت
وبشر ما لقولك من نكير
وهمّ ليس يُجمل بالبصير
مصير غير تقرير المصير⁽⁵⁹⁾

والحاصل أن هناك استشرافات كثيرة عند محمد العيد آل خليفة يضمها البيت أو البيتان أو الثلاثة في كل قضية، غير أننا نتوقف هنا، ونكتفي بما ذكرناه عن أهم تلك الاستشرافات، ومن تلك التي لم نمثل لها، لأن المقام هنا لا يسمح - تضخم المقام - نذكر: الاستشراف بزوال الجهل وانتشار الوعي من خلال جهود العلماء ودور رسالة الشرك ومظاهرة للشيخ مبارك الميلي، والاستشراف بخلود الشيخ عبد الحميد بن باديس في وجدان الشعب الجزائري، والاستشراف الحكمي الذي هو عبارة عن بيت يضم حكمة فيها استشراف للمستقبل مستوحاة في مضمونها من القرآن الكريم والتجربة الحياتية المعاشة، وعسى أن يتسع المقام والوقت لذلك مستقبلاً.

خاتمة:

محمد العيد آل خليفة (1904-1979م) شخصيته جزائرية متعددة الجوانب، إذ كان صحافياً ومُصلحاً في جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، كاتباً، وخطيباً واعظاً، ومناضياً يدعو إلى الانضمام إلى الثورة ويرغب فيها، ومعلماً سخر معظم وقته لمهنة التعليم، فضلاً عن كونه شاعراً ذائع الصيت مشتهراً معروفاً، بذلك فهو حسان الحركة الإصلاحية، وأمير شعراء الجزائر.

وأما الاستشراف بمعنى التنبؤ والتوقع فقد كان متنوعاً في شعره؛ إذ توقع المستقبل الزاهر للشعب في أثناء الاحتلال، ولم يكن ذلك المستقبل الزاهر سوى الاستقلال وإن لم يصرح به، كما استشرّف قيام الثورة ضد الاحتلال وإثابة الله للمحسنين العاملين للخير واستشرّف بزوال الظلم والاستعمار الفرنسي خصوصاً في الجزائر، وتنبأ بانتصار فلسطين وهزيمة الصهاينة، وحفظ الله للمستضعفين ونصرهم، وتحقيق استقلال الجزائر، وخلود الشخصيات الوطنية الجزائرية في وجدان الشعب الجزائري مثل الشيخ عبد الحميد بن باديس وتوقع نجاح طلابه في المستقبل في مختلف مجالات الحياة لخدمة الجزائر.

والاستشراف عنده في أغلبه كان مستمداً من القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف اللذين يشكلان المصدرين الأساسيين في ثقافته، فهو يسقط ما جاء به القرآن والحديث الشريف على أحداث معينة (هلاك فرعون، وعاد، وحفظ يوسف...) على أحداث مشابهة كالظلم والطغيان، فكان يتنبأ بنهايتها كما ورد في القرآن بخصوص مصير الظالمين كما كان يستشرّف انطلاقاً من تجاربه الحياتية الخاصة أو من خلال معطيات أمامه، وإن كان هذا الأمر قليلاً جداً.

كما لم يكن الاستشراف عنده متضمناً في قصائد كاملة مخصصة له، وإنما كان عبارة عن بيت أو بيتين في الغالب، وأبيات قليلة أحياناً، وكان ذلك الاستشراف خلاصة توقعه لما سيحدث من خلال ربطه بحدث أو أحداث معاصرة له تضمنتها القصيدة.

الهوامش والإحالات:

- (1) - محمد الأخضر عبد القادر السائحي: روعي لكم - تراجم ومختارات من الشعر الجزائري الحديث المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1986م، ص 57.
- (2) - أحمد حماني: صراع بين السنة والبدعة، دار البعث، قسنطينة، ط1، 1984م، ج2، ص 142.
- (3) - يراجع: محمد بن سمينة: محمد العيد آل خليفة، دراسة تحليلية لحياته، ديوان المطبوعات الجامعية الجزائر، 1992م، ص 07.
- (4) - محمد الهادي السنوسي الزاهري: شعراء الجزائر في العصر الحاضر، المطبعة التونسية، تونس، 1926م ج1، ص 10.
- (5) - محمد بن سمينة: محمد آل خليفة - دراسة تحليلية لحياته، ص: 09.
- (6) - محمد العيد آل خليفة: ديوان محمد العيد آل خليفة، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر 1979م، ص المقدمة.
- (7) - محمد ناصر: الشعر الجزائري الحديث - اتجاهاته وخصائصه الفنية ، 1925-1975، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، ط 1، 1985م. ص 666.
- (8) - المرجع نفسه، ص ن.
- (9) - يراجع الديوان، ص المقدمة.
- (10) - محمد بن سمينة: محمد العيد آل خليفة، ص 57.
- (11) - المرجع نفسه، ص 58.
- (12) - أبو القاسم سعد الله: شاعر الجزائر محمد العيد آل خليفة، الدار العربية للكتاب، طرابلس، ليبيا ط3، 1984م، ص 23.
- (13) - محمد بن سمينة: محمد آل خليفة - دراسة تحليلية لحياته، ص 72.
- (14) - المرجع نفسه، ص 73.
- (15) - محمد بن سمينة: محمد آل خليفة - دراسة تحليلية لحياته، ص 136.
- (16) - المرجع نفسه، ص 36.
- (17) - جبران مسعود جبران: الرائد معجم ألفبائي في اللغة والإعلام، دار العلم للملايين ، بيروت، لبنان 2003 م. ص 73.
- (18) - مجمع اللغة العربية - الإدارة العامة للمعجمات وإحياء التراث: المعجم الوسيط، قام بإخراجه إبراهيم مصطفى وآخرون، دار الدعوة، ص 526.

- (19) - يراجع: عبد الله بن صفية: الاستشرف في الرواية العربية، مقارنة سردية في نماذج نصية، مذكرة ماجستير، قسم اللغة العربية وآدابها، كلية الآداب واللغات، جامعة الحاج لخضر، باتنة، الجزائر إشراف الدكتور إسماعيل زردومي، 2012-2013. ص من 8 إلى 14.
- (20) - إبراهيم سعد الدين وآخرون: صور المستقبل العربي، مركز دراسات الوحدة العربية، لبنان، 1982م ص ص: 22 - 24.
- (21) - د. العربي فاروق: الاستشرف الاستراتيجي: المفاهيم، النماذج والتقنيات، مطبوعة محاضرات موجهة للسنة الأولى طور الماستر - تخصص دراسات أمنية واستراتيجية - كلية العلوم السياسية والعلاقات الدولية، جامعة الجزائر3، 2019م-2020م، ص 05.
- (22) - نبيل بوالسليو: تحليلات الاستشرف في رواية "ضمير الغالب" لواسيني الأعرج، مجلة المقال، كلية الآداب واللغات، جامعة 20 أوت 1955، سكيكدة، الجزائر، العدد 2، ديسمبر 2015، ص 218.
- (23) - المرجع نفسه، ص ن.
- (24) - سورة النمل، الآية (65).
- (25) - جبران مسعود جبران: قاموس الرائد، ص 526.
- (26) - يراجع هذه القضية في مقال: عنتر قجورة: الاستشرف السياسي عند العلامة الشيخ البشير الإبراهيمي، مجلة المعيار، كلية أصول الدين، جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية، قسنطينة، المجلد 16، العدد 32، 7.6. 2013، ص من 481-504، وقد استشرّف حول: الاستعمار الاستقلال، الهوية...
- (27) - محمد العيد آل خليفة: الديوان، ص 3.
- (28) - المصدر نفسه، ص: 261.
- (29) - محمد العيد آل خليفة، الديوان، ص 58.
- (30) - المصدر نفسه، ص 138.
- (31) - هو النبي يوشع بن يونس عليه السلام.
- (32) - محمد العيد آل خليفة، الديوان، ص 145.
- (33) - أبو القاسم سعد الله: شاعر الجزائر محمد العيد آل خليفة، الدار العربية للكتاب، طرابلس، ليبيا ط3، 1984م، ص: 32.
- (34) - محمد العيد آل خليفة: الديوان، ص 218.
- (35) - لا يقصد الشاعر الغيب الذي لا يعلمه إلا الله، وإنما يقصد ما غاب عنه أي بمعنى المستقبل المتوقع، وذلك لما رآه من أعمال وجهود العلماء في مدرسة دار الحديث.

- (36) — محمد العيد آل خليفة: الديوان، ص 236.
- (37) — محمد العيد آل خليفة، الديوان، ص 254.
- (38) — المصدر نفسه، ص 310.
- (39) — يستخدم كذلك ابن المقفع في كتابه "كليلة ودمنة" الحيوانات ويتحدث على لسانها قاصداً في الحقيقة أشخاصاً معينين، وربما يعود السبب إلى الخوف من الاضطهاد.
- (40) — محمد العيد آل خليفة: الديوان، ص 58.
- (41) — المصدر نفسه، ص: 64.
- (42) — المصدر نفسه، ص: 65.
- (43) — المصدر نفسه، ص: 67.
- (44) — أبو القاسم الشابي: أغاني الحياة، الدار التونسية للنشر، تونس، 1970م، ص ص 264-265.
- (45) — محمد العيد آل خليفة: الديوان، ص 30.
- (46) — سورة ص: الآية، 40.
- (47) — محمد العيد آل خليفة: الديوان، ص 134.
- (48) — محمد العيد آل خليفة: الديوان ص 150.
- (49) — المصدر نفسه، ص 20.
- (50) — المصدر نفسه، ص 61.
- (51) — سورة يوسف، الآية 64.
- (52) — محمد العيد آل خليفة: الديوان، ص 180.
- (53) — المصدر نفسه، ص 314.
- (54) — المصدر نفسه، ص 353.
- (55) — محمد العيد آل خليفة: الديوان، ص 328.
- (56) — عبد المالك مرتاض: فنون النثر الأدبي في الجزائر 1931م-1954م، ديوان المطبوعات الجامعية
وهران، 1981، ط 1، ص ص: 55-56.
- (57) — محمد العيد آل خليفة: الديوان، ص 379.
- (58) — الهاء تعود على الشعب الجزائري.
- (59) — محمد العيد آل خليفة: الديوان، ص 379.